دراسات عن

المؤرخين العرب

الفصل الاول

نظرة عامة فى الموضوع

التاريخ موضوع يؤلف أحد الفروع الغزيرة المادة فى الادب العربى ، وقد قام المستعرب الالمانى وستنفلد **Wustenfeld** بتتبع مجموعة من المؤرخين العرب الذين عاشوا فى السنوات الالف الأولى للإسلام ، فبلغ العدد ٥٩٠ . ومن المرجح أن كثيرين قد أفلتوا منه ، ولو تنبه إليهم لزاد العدد كثيرا . وكثير من آثار هؤلاء المؤرخين ضخم الحجم . يروى أن الطبرى المؤرخ (ت ٣١٠ هـ) أراد أن يملى على تلاميذه كتابا فى التاريخ : أراد أولا أن يضم ٣٠,٠٠٠ ورقة ، ولما اعترض تلاميذه بأن العمر لا يكفى لدراسة مثل هذا الكتاب ، اختصره إلى العُشر ، فجعله ٣,٠٠٠ ورقة ، وهو ما يتفق مع نسخ ليدن والقاهرة . وقد ترك له هذا التأليف من الفراغ ما أتم فيه كتابا آخر بنفس الحجم عن القرآن ، ويقال عنه أيضا إنه عُشر الحجم الذى كان يعتزمه أصلا . ومتوسط ما كان يكتبه فى اليوم ، فى الحقبة المثمرة من حياته ، ٤٠ ورقة ؛ ووجد هؤلاء الذين قسموا الاوراق التى كتبها على أيام حياته من المهد إلى اللحد أنه قد كتب ١٤ ورقة فى كل يوم من أيام حياته .

obeikandl.com

وقد اعتُبر حقبة ، هو وسلفه الجاحظ البصرى ، وخلفه ابن حزم القرطبى ، أكثر المؤلفين العرب تأليفا، ولكن يبدو أن ليس لأحد منهم الحق فى هذا الامتياز . إذ تملأ عناوين كتب المدائنى (ت ٢٢٥ هـ) ، الذى كان من أوائل المؤرخين ، ما يزيد على خمس صفحات . وتستهل كتب ابن عساكر (ت ٥٧١هـ) بتاريخ دمشق فى مئة مجلد ، وكانت المسودة الاولى منه تضم ٥٨٠ كراسة ، والأخيرة ٨٠٠ . ولكن يليه مجموعة من عناوين الكتب التى لا تشغل غير صفحتين ، وبعضها ذو حجم واضح الضخامة . ومن الواضح أن تاريخ الطبرى ، على ضخامته ، لا يقارن فى الحجم بتاريخ الإسلام للذهبى فى القرن الثامن الهجرى .

وكان لمعالجة التاريخ على هذا المجال المتسع بعض المحاسن الواضحة ، وإن كنا سنرى أن المحتويات لا تتناسب مع ضخامة الكتاب أحيانا إذ كثيرا ما تتضخم المجلدات بتكرير المادة الواحدة أو التى تكاد تكون واحدة ، لتغير سند رواتها . ولذلك من الممكن اختصار مجلد كامل من ابن عساكر إلى صفحات قلائل (غالبا) إذا ما رضى القارئ بسند واحد للخبر الواحد . ولكن من الواضح أن ثمن النسخ لا بد كان مرتفعا ، حتى فى حالة تناسب المحتويات مع الضخامة ، ومن ثم لم يكن تنسخ إلا نسخ قليلة ؛ وتبين الاقوال المتناثرة التى نحصل عليها عن ثمن الكتب أو تكاليف النسخ أنه لم يستطع على مجموعات كاملة من أمثال هذه الكتب إلا قليل من الدارسين . وحينما يتوفى مالك مثل هذه الكتب ، كانت المجلدات توزع بين الورثة . ولذلك كان الدارس الذى يستطيع أن يرى جميع مجلدات كتاب من هذا النوع بالرحلة إلى البلدان المختلفة فى كثير من هذه الاحوال يعتبر نفسه حسن الحظ .

وبـــرغم أن تشت وستنفلد ينتهى بعام ١٠٠٠ هـــ ؛ لا يبتدئ بوفاة النبى . والاقـــوال المتعـــلقة بالأدب المنثور المدون على صورة الكتب قبل العهد العباسى غامضـــة ولا يوثق بها فى أغلب الاحيان . والمحل الطبيعى للكتاب لدينا مادة ما مثل الســـورق : حُفظ فى الذاكرة أو لم يحفظ . ولكن المحل الطبيعى للكتاب لدى العرب هـــو الذاكـــرة : دُوِّن أو لم يـــدون . وفى القرآن شواهد على أنهم كانوا يعتبرون الذاكـــرة محل الكتاب ، بغض النظر عن أهمية التدوين عندهم . والنص المروى قد يُحـــرَّف أو يُنْسَى ؛ وقد يُدوَّن أو يحفَظ . ونقرأ فيه عن نصوص واضحة فى صدور مـــن وصـــفوهم بالمعرفة . فيقال إن أهل الكتاب اتخذوا « جداول » من كتبهم المقدسة : ومن الممكن أن توجد هذه الكتب ، وقد وجدت فعلا ، مستقلة عن هذه الجـــداول ، وأمكن نقلها على هذا النحو إلى الانبياء بالوحى . وستتاح لنا الفرصة فـــيما بعد لملاحظة قوة سيطرة هذا التصور عليهم حتى فى الوقت الذى دونوا فيه وقيدوا الكتب الضخمة على نطاق واسع .

وستشـــغل الاســـباب التى منعت تطور الادب المنثور قبل العصور العباسية والعلل التى تغلبت عليها بعض وقتنا فى الغد . والأمر الذى يثير عجبنا، عند اعتبار الضـــخامة الهائلة التى بلغ إليها الادب التاريخى ، هو سرعة ذلك التطور . ويشبه ذلـــك الـــتدفق المفـــاجىء لقدر كبير من الماء كان مخزونا . ولعل أحد الاسباب اخـــتراع لم يعـــط فىتاريخ التقدم القيمة التى هو أهل لها ، ذلك هو الورق ، الذى أدخلـــه المســـلمون فى أوروبا . وقد حصل عليه المسلمون من الشرق الأقصى ، وأخـــذوا فى اســـتخدامه وصناعته حتى فى القرن الأول من تقويمهم . ويشبه ذلك الاختراع ، فى ترخيصه عملية إنتاج الكتب ، اختراع الطباعة .

:

ولكـــن يـــبدو أن الاســـلام نفسه ، مع ظهور العباسيين ، وبناء عاصمتهم العظـــيمة بغـــداد ، حطـــم الاغـــلال . حقا ليس من الواضح أن الاسرة الجديدة اســـتبدلت بالمثل الاموية فى التدين والاخلاق أحسن منها . ولكن من اليسير تبين الـــترحيب الذى لقيته الاسرة الجديدة ، إذ كانت الاضطهادات بين بنى أمية وآل الـــنبى من العمق بحيث لا تسمح بالاخلاص لاحدهم . ويروى عرضا كيف أبطل عمـــر بن عبد العزيز الورع سب علىّ على المنابر : ولذلك يحترم الشيعة ذكراه . ولكن كان لهذا الخضوع للعاطفة من النتائج الخطيرة فى زعزعة سلطة الامويين ما كان لاسترجاع رفات نابليون فى زعزعة دعائم المملكة الفرنسية . وحين نقرأ كيف لم يكن الناس فى العهد الاموى يجرءون على تسمية أبنائهم بعـــلى ، أو حسن ، أو حســـين ، لا يدهشنا أن تتأخر أقدم ترجمة للنبى إلى ما بعد قيام العباسيين . إذ لم يكن من الممكن أن تروى ترجمة النبى فى أيام الامويين دون زعزعة إخلاص المسلمين لحكمهـــم : زعزعة خطيرة : ولم تكن النتائج لتحسن الاوضاع . فإذا كان الناس خافوا أن يسموا أبناءهم عليا ، أو حسنا ، أو حسينا ، وألفوا سماع سب علىّ على المـــنابر ، فـــإنهم كـــلما قل سماعهم أنباء صدر الإسلام ، ازداد احتمال احتفاظهم بطاعتهم .

ومـــن المـــرغوب فيه أن نعثر عى بعض الاسس التى نستطيع أن نقيم عليها تصنيفا لهذا الأدب الفسيح ، وربما زودنا بها تصورنا لما نريده من التاريخ . حقا إننا لســـنا فى حاجة إلى أن نشغل أنفسنا بالسؤال عن كيفية تدوينه : فقد قُدِّمت عدة نظـــريات مختلفة عن ذلك الموضوع الغامض . ومن المحتمل أن نتفق جميعا على أنه سجل للحوادث : وأن تلك الحوادث هى غالبا ، وإن لم يكن دائما ، أقوال الناس وأفعالهم . ولعلنا نحصل على بعض أسس التصنيف من هذا التعريف .

أولا مـــن القـــدر المعالَج فى المكان والزمان ، فهناك تواريخ عامة وتواريخ خاصـــة . فكـــتاب الطبرى تاريخ عام ، فى قصده على أية حال . ولذلك يستهل بـــتعريف الـــزمان ونظرية عن عمر الدنيا ، وعنوانه تاريخ الرسل والملوك . وحين يصـــل إلى ظهور الاسلام ، يقتصر على الجزء الذى ضمه الاسلام من العالم . وسار غيره من المؤرخين العامين المعترف بهم على الخطة نفسها .

وقيـــد المؤرخـــون الذين كانت خطتهم أقل طموحا بالاجزاء الاسلامية من الارض أو بهذا أو ذاك من تلك الاجزاء : أو بعهد ما من التاريخ الاسلامى عـــامة أو مـــن تـــاريخ دولة إسلامية خاصة . ولذلك لدينا تاريخ الاسلام للذهبى الذى أشـــرت إليه ، وتواريخ أقطار كمصر ، والأندلس ، والمغرب ، أو بلدان كمكة ، والمدينة ، ودمشق ، ونيسابور ، وهمذان ، وهراة أو أسرات كتاريخ الخزرجى لآل رسول فى اليمن ، أو تاريخ أبى شامة لدولتى نور الدين وصلاح الدين .

ويمت أساس آخر للتصنيف للأشخاص الذين كان لهم نصيب فى الحوادث. والأحـــرى أن يسمى هذا الفرع ترجمة لا تاريخا ، ولكن الخط الفاصل بين الاثنين غـــير بارز فى الغالب . وحيثما يكون الشخص المدونة حياته حاكما ، يختفى الخط الفاصـــل : إذ أن الحـــاكم هـــو الدولة وفقا للقول المشهور للويس الرابع عشر ، وترجمته تاريخ لعصره . ولما كانت الدول المدون تاريخها خاضعة للحكم المطلق إلا فى أحـــوال نـــادرة ، وجدت التواريخ المتتابعة أقسامها الطبيعية إلى فصول بتعاقب الحكـــام . وحيـــثما يكون عنوان مثل هذا الكتاب بسيطا ، لا خياليا ، نجده كثيرا يـــتفق مـــع ذلـــك : فتاريخ الطبرى ، كما رأينا ، تاريخ الرسل والملوك : وأمثال العـــناوين الـــتالية : تاريخ الخلفاء ، أو أخبار الخلفاء ، عامة العموم ، ولا يزداد وضوح هذا الفاصل بين التاريخ والترجمة حين لا يكون الموضوع حاكما وإنما وزير

مطلق السلطة ، شأن كثير من الوزراء ، فحياة الوزير الطيب على بن عيسى ، التى نشرها حديثا مستر بـــوون Mr. Bowen ، فى الحقيقة تاريخ لعهد المقتدر : لأنه بالرغم من قدرة الخليفة على تعيين الوزراء وعزلهم حسب هواه ، كان الوزير فى أثناء تقلده السلطة مسئولا عن جميع مصالح الدولة . حقا اعتبر الحجة الكبير فى القـــانون الدســـتورى الطريقة التى يفوض بها الحاكم الوزير سلطته أمرا عاديا . ولذلـــك يجب اعتبار الكتب التى تروى حياة الوزراء تواريخ لعهودهم . ونملك من الكـــتب الكـــثيرة الـــتى عالجت هذا الموضوع قطعا من كتابين ، وربما عثرنا على غيرهمـــا. وإذا كانت هذه الكتب تختلف فى الصورة عن التواريخ، فان ذلك راجع إلى ميـــل المترجمين العرب إلى إيراد الأخبار على ترتيب سنوى بدلا من اتباع رواية الاحداث على ترتيب وقوعها .

وحيثما كانت الترجمات لأشخاص أقل اتصالا بالشئون العامة ، لم تصنف مع الـــتاريخ بدون شروط معينة ، ولكن الباحث الحديث فى ذلك الموضوع لا يستطيع أن يغفـــلها ، إذا أراد أن يفهـــم شيئا عن حياة الرعية وشواغلها ، إلى جانب تتبعه الملوك فى كفاحهم الخارجى والداخلى ، وروابط الزواج بينهم ، وقوانينهم . وأدب التراجم عند العرب غاية فى الغنى : حقا يبدو أنه كانت تقام سوق لترجمة من يتوفى فى بغـــداد مـــن الكبراء كما هو الحال فى عواصم أوروبا فى أيامنا ؛ وحيثما تفرض شخصـــية رجـــل ما تأثيرها فى الرأى العام لبعض الأسباب ، أو تبلغ آثاره الادبية مرتـــبة القدماء ، تلتف حوله عدة تراجم . ولاشك أن تراجم الاحياء كانت نادرة ولكنـــنـــا لديـــنـــا مثال لاحدها فى كتاب أبى حيان التوحيدى عن الوزيرين ابن العميد الثانى والصاحب بن عباد ، الذى احتفظ ياقوت بمقتبسات كبيرة منه ، على حـــين يوجد من الأسباب ما يجعلنا نؤمن بأن الكتاب كله لا يزال موجـــودا . فقد كـــان عـــلى وشك أن يطبع فى الآستانة ، ولكن السياسة التى أرغمت الصحفيين

العثمانيين على إخفاء قتل الرئيس ملك كنـــلى Mc Kinley ، منعت نشر كتاب يهـــاجَم فيه أحد الوزراء . أضف إلى ذلك أن الكتاب اشتهر بأنه يجلب النحس ، كبعض الكتب الأخرى .

والادب المؤلـــف مـــن تراجم مجتمعة غزير بصورة غير عادية ، ولذلك كان أيســـر عـــلى دارس تـــاريخ الخلفاء أن يجد شيئا ما عن الاشخاص المذكورين فى التواريخ من عثوره عليه فى أيه حالة مشابهة . وقد جمع بعض المؤلفين تراجم الكبراء فى جميـــع الالوان : وكتاب ابن خلكان معروف ، ولاتزال توجد عدة مجلدات من كـــتاب آخـــر أوسع نطاقا منه إلى درجة بعيدة ومتأخر عنه بما يقرب من قرنين . ولكن الاكثر أن يقتصر هؤلاء الجامعون على فئة خاصة من الاشخاص – الشعراء، أو الاطباء ، أو فقهاء أحد المذاهب ، أو القراء ، أو المحدِّثون وما أشبه ، أو يعالجون أشخاصا اشتهروا بصفة أو عمل ما ، كالبخلاء أو الطفيليين .

وامـــتاز فى هذه الكتب أربعة مناهج أو تنظيمات . قـــــــد نصف أولها بالـــتحكمى. كمـــا نرى فى ذلك المخزن الكبير للمعلومات التاريخية ، أعنى كتاب الاغـــانى ، الـــذى يعتمد الترتيب فيه على مجموعة من مئة قصيدة ملحنة اختيرت إجابـــة لامر أحد الخلفاء : وأدى ذلك إلى مجموعة من الروايات المتصلة بالشعراء والموســـيقيين . والمنهج الثانى جغرافى ، إذ يتخذ الجامع أساس تنظيمه الاقطار التى ينتســـب إليها الاشخاص الذين يتناولهم . وأشهر أمثلته « يتيمة » الثعالبى ، حيث يجمـــع الشـــعراء حسب أقطارهم ، وعيون ابن أبى أصيبعة ، حيث يفعل مثل ذلك بالأطباء . والاساس الثالث حَوْلىّ . وتسمى الكتب التى من هذا النوع «الطبقات» فـــتعالج الموضـــوعات فيها وفقا للأجيال . وأشهر أمثلة هذا المنهج طبقات الحفاظ

للذهبى ، وطبقات الشافعيـــة للسبكى . والاساس الرابع ، وهو الاكثر شيوعا من بعض النواحى ، ألف بائى ، وهو الذى اتبعه ياقوت .

ولعـــل نظـــام الطـــبقات هو أنفع المناهج للباحث التاريخى : إذ يوجد فيه الاســـتمرار ، الذى هو جوهر التاريخ . وتفوقه على النظام الجغرافى واضح ، لأن الدراسات الاسلامية مشتركة إلى درجة عظيمة ، بالرغم من انقسام العالم الاسلامى منذ وقت مبكر جدا إلى دويلات مختلفة ، بعضها لم يتصل بغيره إلا بصلات واهنة . وربطـــت اللغة المشتركة ، والدين المشترك ، والادب المشترك ، بين أسبانيا ومصر وبين سورية والعراق ، حتى عندما انقطعت عرى الروابط السياسية ، ولم يعد هناك أمـــل فى الاتحـــاد ثانيـــة . وكان الشعراء ورجال العلم والحرف يرحلون من قطر إســـلامى إلى آخر، ويقيمون حيثما أملوا النجاح إقامة مؤقتة أو دائمة . حقا توجد أمـــثال تـــبالغ فى مساوئ النفى : ولكن كثيرين ذكروا أنه طريق النجاح . وأشهر الشـــعراء العرب جميعا ، المتنبى ، لم يستطع أن يبقى طويلا فى أى قطر : ووجد من يـــرعاه فى مصر ، وسورية ، والعراق ، وفارس . ولذلك يعلق النظام الجغرافى أهمية كـــبيرة عـــلى مـــا هـــو عارض . وضحَّى الذين اتبعوا الترتيب الالف بائى بعض تضحيات ، إن لم يكن بالاستمرار ، فبالتماثل أو بعض الصلات الاخرى التى تربط موضـــوعاتهم على أية حال. وكانت تضحيات ابن خلكان التى من هذا الصنف لها شأنها ، وارتكب ياقوت بعضها .

ثالـــثـــا مـــن الممكن أن نحول الاهتمام من المكان والاشخاص إلى الاحداث نفســـها . وسنرى أن أقدم صور الرواية التاريخية اتبعث ذلك الاساس . فقد كان الـــتاريخ المبكر للإسلام مجموعة من الحوادث ، سجلها شاهد عيان أو أكثر : وهيأ لهـــم مقتل عثمان ، وموقعة الجمـــل ، وموقعة صفين ، والتحكيم ، وفتوح البلدان

المختلفة ، روايات متناثرة ، نظمت فيما بعد فى تاريخ مستمر . واستمرت الرسائل، كما يجب أن نسميها ، تدون عن هذه الاحداث وغيرها بعد أن صارت التواريخ المستمرة مألوفة بزمن طويل . ومن الممكن أن تعالج الاحداث لا على أنها تستحق الذكر فى ذاتها ، بل على أنها تمثل مبدءا ما فى الطبيعة البشرية أو فى حكومة العالم . وأمدنا هذا التصور بعدد عظيم من المختارات ، وما أشبه ؛ ولا يفوق العربية فى هذا الصنف من الادب غير قليل من اللغات . وكثيرا مالا تبذل أية محاولة لترتيب المادة . ومما تجدر ملاحظته أن كتابى التنوخى اللذين من هذا النوع يتبع أصغرهما أساسا للترتيب ، أما أكبرهما فلا يتبع شيئا . فينقسم كتابه « الفرج بعد الشدة » إلى فصول تتناول مجموعات من الاحوال التى تخلص فيها الناس من خطر داهم دون توقع منهم للخلاص : مثل التخلص من الحيوانات المفترسة ، وقاطعى الطريق، والاحلام المفزعة ، وغيرها . أما كتابه الأكبر ، « جامع التواريخ » أو « نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة » ، الذى لم نعثر منه إلى الآن إلا على مجلدين من أحد عشر ، فيخلط عمدا المادة التى تتناول عددا كبيرا من الطبقات : ويظن المؤلف أنه يسهل الاحتفاظ باهتمام القارئ إذا تجنب التناسق. وبرغم ذلك لم يفلح تماما فى عزل الامور المتماثلة . وقد يبدو لنا بعدُ أن فى ذلك الكتاب شيئا ما شبيها بالاساس الذى ترتب عليه كتب « المسانيد » ، أعنى جمع المواد وفقا للراوى الذى يرويها .

وأوجه العناية إلى ثلاث خصائص واضحة فى هذا الادب .

أولا ، الاستقلال . حين بدأ التأليف الأدبى على النطاق الذى لا حظناه ، وجدت عدة فروع استخدمت فيها النماذج الاجنبية . وقلما يخفى الكتاب العرب دينهم : بل اعترفوا به فى طبهم ، ورياضتهم ، وفلسفتهم . وقد بدأت جميع هذه الفروع من الأدب بالترجمة من الاغريقية : ويبدو أن من تلا الاولين لم يكف أبدا

عـــن ترجمـــة النصوص الاغريقية والتعليق عليها . وفى باريس مخطوط يحتوى على أربع ترجمات منفصلة لرسالة واحدة من رسائل أرسطو .

وكان بعض الناس يشكون فى مهارة الذين ادعوا المعرفة بالعلوم الاجنبية فى هـــذه العـــلوم : ولدينا أكثر من خبر عن أشخاص أشرار قدموا الاسئلة الفلسفية الساخرة التى ظنها الفلاسفة أسئلة جادة وحاولوا الاجابة عليها . ونُظِر إلى المعارف الاجنبية فى عهود مختلفة فى رهبة وفزع . ولا نزاع فى كونها أجنبية الأصل . كذلك اعتُرف بجلب أدب الخرافات من الهند عن طريق فارس : ووجد بعض المقلدين ، بل ربمـــا الكـــثير مـــنهم . ومن العسير فى النحو أن نغفل صلته الظاهرة بالدراسات الســـريانية فى تلك المنطقة ، وكانت بدورها قائمة على الدراسات الاغريقية : بل لقد وجد بعضهم أثرا يونانى الاصل فى الاسم الذى أطلقه العرب على النحو ، وإن بدا ذلك أمرا مستبعدا .

حقـــا يضـــم الادب الاغريقى نظراء – ربمـــا – لجميع فروع التاريخ التى عددناها . فكان لدى الاغريق التواريخ العامة ، وتواريخ الاقطار والمدن ، وتراجم الاشخاص والطبقات ، والمنتخبات **Collectanea** والسجلات **Memorabilia**، التى تشبه فى خصائصها ما تطور عنه الادب العربى . وبرغم ذلك يبدو أنه لا يوجد أثـــر لأى ترجمة من مؤرخ إغريقى إلى اللغة العربية : ولم يعرف المفهرسون العرب تلك التواريخ التى تُعَد فى أوروبا نماذج الكتابة التاريخية . بل يبدو أنهم أهملوا أيضا المؤرخين السريانيين ، الذين كانت آثارهم تثير اهتمام اولئك المشتغلين بالدراسات القديمـــة . ربما أفادوا من المؤرخين الفرس ، مثل أولئك الذين يبدو أنهم وجدوا فى العهـــود المســـيحية ، ولكن هذه الافادة لا تتضح فى العصور السابقة على ذلك. ويظهـــر أن الـــتاريخ العـــربى مستقل عن هذه الكتب وقد نما أمام أعيننا ، وليس

استمرارا للتواريخ القديمة ، لاسباب ستشغلنا بعد ، وإنما هو نمو طبيعى ، جاءت به إلى الوجود حاجات المجتمع ، وتتجلى فيه خصائص خاصة به .

ثانيا ، كان المؤلفون فى النادر جدا مؤرخين رسميين ، يقتضيهم واجبهم تسجيل ما تريد الحكومة تسجيله . وقد ذكر الطبرى وغيره حالات أمر فيها الخليفة بتأليف كتب ، مثل مجموعة الاغانى القديمة التى أمر المهدى بجمعها ، والرسائل التى أمر القادر بتدوينها عن المذاهب الاربعة . ويبدو أنهم لا يذكرون حالة أمر فيها الخليفة بتدوين كتاب تاريخى ، وإن دونوا حالات عاقوا فيها مثل هذه الكتب أو منعوها . ويمثل التواريخ الرسمية كتاب « التاجى » الذى عنون باسم « تاج الملة » ، وهو أحد القاب عضد الدولة ، ومؤلفه إبراهيم الصابى الكاتب المشهور . وقد ألف الرجل ، باعتباره كاتب عز الدولة بختيار ، ثانى أُمراء بغداد من البويهيين ، رسائل أساءت إساءة بالغة لابن عمه عضد الدولة ، الذى هاجمه بعد وفاة أبيه وخلعه عن عرشه . وبرغم أن إبراهيم لم يكن إلا منفذا لاوامر مولاه ، فلا يعتبر مسئولا عما تضمنته رسائله من مشاعر ، وانما يُسأل عن التعبير وحده . طلب إليه عضد الدولة أن يكفر عن إساءته فى تأليفها ، وكان التكفير المقترح أن يدون تاريخا رسميا لبنى بويه . ويقال إن جزءا كبيرا من هذا الكتاب مقتطف فى تاريخ مسكويه ، ولكننا لم نعثر بعد على الاصل ، وإن احتفظ ببعض قطع منه فى اليتيمة للثعالبى وتاريخ اليمينى للعتبى . وحين سأل أحد الزوار إبراهيم عما يفعل ، فى أثناء اشتغاله بهذا الكتاب ، أجاب : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » . فلما سمع عضد الدولة ذلك القول استبد به الغضب حتى أمكن بكل مشقة أن يمنع من قتل إبراهيم قتلة شنيعة . وقد راجع عضد الدولة نفسه الكتاب قبل إخراجه . ومن الممكن وضع تاريخ اليمينى أو أخبار غزوات يمين الدولة فى

الهند للعتبى مع التواريخ الرسمية : وقد يقال الأمر نفسه عن الوصف المليء بالعجيج، الذى قام به عماد الدين الاصبهانى كاتب صلاح الدين ، لاسترجاعه بيت المقدس ، وأعطاه العنوان الفخور « الفيح القسى فى الفتح القدسى » .

ولا تخلو مجموعة من التواريخ الرسمية للخلفاء من القيمة ، ولكن مثل هذه التواريخ فقيرة ولا يوثق بها ، إذ تقتصر على ما يرغب الحاكم فى تدوينه .

وقد كتب المؤرخون فى أغلب الأحيان لتعليم مواطنيهم ، وبرغم تأثرهم أحيانا بهوى دينى أو وطنى ، يعتبر حيادهم العام سمة مدهشة فى كتبهم . ولا نستطيع أن نجد مثالا لهذا أحسن من تاريخ مسكويه . فقد كان حياته كلها فى خدمة وزراء السلاطين البويهيين : المهلبى وزير معز الدولة وابن العميد وزير ركن الدولة ، ثم فى خدمة عضد الدولة نفسه وابنه بهاء الدولة مباشرة : وربما كنا نتوقع منه أن يكبح جماح نقده لأفعال هؤلاء السلاطين ، وما دام شرف العائلة كان يرتكز على أعمال أوائلها ، بالرغم من المعارك العنيفة التى نشبت فى الجيل الثانى منها ، ولكن ليس من أى أثر لمثل هذا التحيز فى كتاب مسكوية . والأشخاص الذين منحهم مدائحه التى ربما كانت تميل إلى المبالغة هم الوزيران المهلبى وابن العميد ، اللذان كانا قد ماتا منذ زمن طويل حين أظهر كتابه ، ورويت أخبار مؤسسى دولة البويهيين دون أيه محاولة لاخفاء جرائمهم ، ووصمهم باتهام فظيع فى حالة معز الدولة . وكان تقديره لعضد الدولة له ما يبرره : فهو يلفت الانظار إلى محاسن إدارته ، التى يظن أنها ترجع إلى تعليم ابن العميد الاول ، ويؤمل أن تتكافأ الخدمات التى أداها للدولة مع الجرائم التى ارتكبها. ونسب إلى ركن الدولة فضائل معينة ، يبدو أن هذا السلطان كان يتحلى بها ، ولكنه اهتم ركن الدولة بالتضحية بشئون رعاياه فى سبيل شعور أحمق (كيشوتى) بالاخلاص لاصدقائه . وجعل من

أبى الهيجاء ما يشبه البطل ، وهو من بنى حمدان ، الذين كانوا على عداء دائم للبويهيين . والغريب أن المدائح التى أسبغها أبو شجاع على عضد الدولة بعد ذلك بقرنين مدائح مليئة بالتحمس ، على حين كان مسكويه ، الذى كان فى خدمته ، بذلك الهدوء والعدالة .

والطبرى جامع للروايات أكثر منه مؤرخا ، ولكن كتابه يمتاز بما يشبه ذلك الحياد . فإذا كان عبر عن إعجابه بمواهب المعتضد العسكرية ، فمن الواضح أنه كان يتحلى بها فعلا ، وبرغم أنه كتب كتابه فى عهد ذلك الخليفة ، ليس فيه ما يقارن بتملق ابن المعتز . وربما كان المرء يتوقع أن يغار الخلفاء العباسيون من أسلافهم ، فيحاولون إخفاء ضعفهم أو انحرافهم عن الطريق السوى ، ولكن من العسير أن نجد شواهد على مثل هذه الرغبة فى تاريخ الطبرى .

ويجب أن نجد السبب فى كون معظم هؤلاء الكتاب ألفوا تواريخهم لا بصفتهم مؤرخين فى البلاط ، وإنما بصفتهم أشخاصا قادتهم ميولهم إلى متابعة هذا الصنف من الدراسات . فكان الطبرى نفسه صاحب أملاك ، يسّر له أبواه فى أوائل حياته الرحلة بعيدا، وفى مجال واسع للحصول على المعارف التى أفاد منها بعدُ فى محاضراته ومصنفاته : وعاش فيما بعد على الاجور التى ألف أن تجلبها له قوافل الحجاج الآتية من طبرستان ، حيث توجد أملاكه . وكان الدينورى المؤرخ قاضيا ، وتقلد التنوخى القضاء أيضا. وكان كثير من المؤرخين من الكتاب مثل مسكويه وهلال ، وكانوا يعملون فى الديوان العام . وكان أبو شجاع وزيرا متقاعدا .

ولفت ريبرا Ribera الانظار إلى انه لم توجد منظمة عامة للتعليم إلى عصر نظام الملك الوزير السلجوقى ، الذى بنى المدرسة النظامية ، وكان التعليم حتى ذلك الحين متروكا للجهد الخاص . وقد نضمّ إلى ذلك حقيقة أخرى هى أن تدوين التاريخ كان فى أغلبه متروكا للجهد الخاص أيضا . وقد نسمى المؤرخين معلمى التاريخ بالمعنى اللغوى للكلمة : أى الاشخاص الذين تعهدوا بتهيئة المعلومات فى ذلك الموضوع ، لا أشخاص كلفهم شخص أو هيئة ما بتهيئتها . وكانوا أولا معلمين ، كما رأينا وستتاح لنا فرصة أخرى لنرى ، وكانوا أحيانا كتابا .

وحيثما لم يكن للمؤرخ مورد خاص ، يبدو أنه استطاع أن يعتمد على مكافآت الطلبة الراغبين فى الحصول على ما يستطيع أن يقدمه لهم من معلومات ، وإن كان الامر الغريب أنه لم تصل إلينا روايات بهذا الصدد . ولكننا لدينا ما يكفى من الاشارات ليوضح أن أولئك المعلمين الذين كانوا يحلّقون فى المساجد أو يعقدون الجلسات فى منازلهم كانوا عادة يأخذون مكافآت عن ذلك ، وإن مد الاثرياء من المعلمين كالجبائى المتكلم تلاميذهم أحيانا بالموارد التى تيسر لهم حضور الجلسات من أموالهم الخاصة .

ثالثا ، نلاحظ مناهج معينة ابتكرها المؤرخون العرب لضمان الصحة فى تسجيل الأحداث . أحدها تأريخها بالسنة والشهر ، بل باليوم . ويصرح بَكِل Buckle مؤرخ الحضارة أن ذلك العمل لم يحدث فى أوروبا قبل ١٥٩٧ م . ونجده مستطورا عند الطبرى من بين المؤرخين العرب ، وينسب إلى مؤلف سابق عليه، هو الهيثم بن عدى ، المولود ١٣٠ هـ ، تاريخ مرتب على السنين . وكان التقويم ضروريا لمثل هذا الغرض ، ويقال إن التأريخ بهجرة النبى من ابتكار الخليفة الثانى . ويوجد تدوين السنين والشهور فى أحد التواريخ الجاهلية التى سأوجه

الانظـــار إليها قريبا . ويقول الجواليقى ، الذى جمع الالفاظ المعربة ، إن معنى كلمة « تاريخ » « التوقيت » وإنها معربة من الكلمة السريانية التى بمعنى « الشهر » . ومـــن الغـــريب أن يكون ذلك كذلك ، لأن المادة وان كانت لا توجد فى عربية الشـــمال ، يوجد مثيل لها فى لهجة الجنوب ، فى صيغة « ورّخ » ، التى يشتق منها « تواريـــخ » . وتوجدالحـــروف نفسها مجتمعة فى نقش فينيقى ، يرجع إلى ما قبل الـــتقويم الإسلامى ببضعة قرون ، وترجمه بعض الباحثين بكلمة « ميعاد » ، ولكن الـــنص أنقص مما يمكننا من معرفة دلالته الخاصة . وإذا كانت الكلمة العربية تعنى حقـــا « الـــتوقيت » فكونها وليدة الصيغة العربية القديمة « ورّخ » أرجح من كونها سريانية، وقلب الواو همزة ليس أمرا شاذا . ولكن قد يظن البعض أن الكلمة أجنبية ومعناها « السنين » أو « الحوليات » .

ومـــن الطـــبيعى أن لم يحتفظ المؤرخون الاغريق ولا الرومانيون ، ولا كتاب الانجيل ، بالتواريخ احتفاظا واضحا : وكان لدى الرومانيين تقويم ثابت أقل فسادا مـــن نظام الأغريق . ومن الواضح أن التقويم الإسلامى ، وإن كان لا يفى بأغراض الإدارة ، كـــان وحده الذى تناسب أحسن التناسب مع تسجيل الاحداث، إذ إن عدد الايام فى كل سنة كان ثابتا دقيقا ، وكانت الشهور قمرية كاملة ، دون زيادة أى يـــوم . ولما لم تكن السنة الإسلامية دورة شمسية ، كما كان يسميها القدماء ، وإنما مجموعة من اثنى عشر شهرا قمريا ، يجب أن نعترف بأن كلمـــة « التاريخ » لإبانة الميعاد صحيحة صحة فريدة .

والمـــنهج الـــثانى لضمان الصحة هو « الاسناد » وهو سلسلة الرواة الذين يمكن أن نتبع آثار الرواية عن طريقهم إلى شاهد العيان الأصلى الذى رواها . وقد صـــارت هـــذه الدراســـة فى ميدان أقوال النبى وأفعاله علما : ويتألف من اختبار الحـــلقات الـــتى وصل كل حديث عن طريقها إلى رجال أى جيل . وقد تفرع من

هـــذه الدراسات دراسات أخرى كثيرة : فلا بد أن يلاحظ قارئ معجم البلدان لياقوت أن المهمة الحقيقية لجامعه تمكين المحدّث من تتبع كل راوية للاحاديث إلى موطـــنه . وكتاب السمعانى العظيم فى الانساب ، بمعنى النسبة ، هو مساعدة لتتبع المحدّثين . كذلك تفرعت دراسة التاريخ بالطريقة نفسها من دراسة الحديث : فقد كـــان دارسوا الفرعين أولا هم هم : ثم صار التاريخ فرعا متميزا تدريجيا ، وصار الاخـــبارى شخصا غير المحدث ، ونضيف إلى ذلك أنه كان أقل منه مرتبة . وبرغم ذلك استمرت فكرة وجوب تتبع كل رواية ، كى تكون جديرة بالثقة . فى مجموعة معـــروفة من الرواة إلى مصدرها ، سائدة على التأليف التاريخى حتى عصر متأخر . وهـــناك كـــتب تـــبدو محتوياتها من الخفة وعدم الاهمية بحيث يعجب المرء للجهد المـــبذول فى تدوين اسم كل راو والتاريخ والمكان اللذين سمع فيهما الرواية ؛ مثال ذلـــك مصارع العشاق للسّراج ، وهو مجموعة من الاحوال التى يفترض ان رجالا أو نســـاء ماتوا فيها من أجل العشق . ويسجل فيه المؤلف تسجيلا صحيحا دقيقا الـــتاريخ الذى سمع فيه الخبر ويذكر تفاصيل مماثلة عن الرواة . وهناك كتب تسير على نفس الاسلوب وأقوالها واضحة الكذب بحيث يعجب المرء من جرأة الكذب . ولكـــن بالـــرغم مـــن أن نظرية الاسناد سببت متاعب لا نهاية لها أحيانا ، بسبب الابحـــاث التى ينبغى القيام بها لتوثيق كل راو ، وإلفهم وضع الاحاديث وتقليدها أحيانا فى سهولة ، لايمكن الشك فى قيمتها فى ضمان الصحة، والمسلمون على حق فى فخـــرهم بعلم الحديث . وفى السجلات القديمة الأخرى ، نضطر إلى الأخذ بما يروى لنا على مسئولية المؤلف : فمن النادر أن يخبرنا المؤرخ الاغريقى أو الرومانى بمصدر معلوماته . وقد اكثر البحاثة الالمان خاصة من الكتابة عن « نقد المراجع » محـــاولين تتـــبع روايـــات الكتاب الانجيليين وغيرهم إلى المصادر التى حصلوا على مواردهـــم منها . وحيثما لا توجد هذه الموارد، لا تعطينا هذه المحاولات فى أحسن

حالاتها إلا فروضا ترجيحية . أما فى آثار الطبرى ، والبلاذرى ، والتنوخى ، فيوفر علينا الكتاب أنفسهم هذا الجهد. أما هؤلاء المهتمون بالاخبار أكثر من اهتمامهم بمصادر ها فيغفلون عادة الاسناد .

ونعترف بأن عدة أسباب اجتمعت لعرقلة جهود هؤلاء الذين حاولوا أن يضمنوا الصحة عن هذا الطريق . وأولها عدم جدارة الذاكرة البشرية بالثقة ، ونجد أمثلة ذلك حتى بين من اشتهروا بقوة حافظتهم . وثانيا الصعوبة التى واجهها كثيرون فى ملاحظة الحقائق وبنات الخيال ملاحظة دقيقة ، والتمييز بينها : ولذلك يصرح نيتشه Nietzsche بأن الانسان غير المتحضر يحيا لونا من ألوان حياة الاحلام ، يسزوده الوهم فيها بصور لا تمت للواقع بسبب فى تفسيره للتجارب. وثالثا أثرت الفكرة التى تمسكوا بها وتذهب إلى وقوع شىء ما فعلا لأن الراوى ذهب إلى وقوعه ، أثرت تلك الفكرة فى صدق كثير من سجلات الاحداث . وغالبا ما تبنى إعادة بناء التاريخ القديم ، حتى فى أيامنا وفى أوروبا الناقدة ، على هذا الاساس . ورابعا وجد بين المحدثين الذين لا يحصى عددهم جماعة من الاشخاص المستهترين ، الذين شوهوا أو كذبوا عمدا . وبرغم ذلك كله ، تبلغ صحة أشهر المؤرخين العرب مرتبة سامية ، وتجعل كتبهم ذات نفع عظيم للبشرية .